

الفضاء السوسيو- ثقافي

لنخب المغرب الأوسط بمحاضر وأرياف المغرب الأدنى (7-9 هـ/13-15 م)

The socio-cultural space of the elites of the Middle Maghreb in the cities and countryside of the lower Maghreb (7-9 H/13-15 AD)

زياني الصادق (*)

جامعة محمد لمين دباغين-سطينف2، (الجزائر)، ziani@univ-setif2.dz

تاريخ الاستلام: 2024/12/ 26 تاريخ القبول: 2025/03/ 18 تاريخ النشر: 2025/06/ 03

تبحث هذه الدراسة التغرب العلمي لنخب بلاد المغرب الأوسط، واستقرارهم الدائم بمحاضر وأرياف المغرب الأدنى بفعل توفر بيئة ومناخ مناسب للتوطين، من خلال انتشار المؤسسات التعليمية النظامية والخاصة، والخلق ومجالس العلماء، وكذا دعم السلطة الحفصية للعلم ومشايخه، ناهيك عن تغلغل الفكر الصوفي بفعل الأربطة والزوايا، وبروز أقطاب وتيارات صوفية قوية. كما تهدف الدراسة إلى تفحص نتائج الاستقرار الدائم لهاته النخب، أين مكن لهم في الخطط والمناصب، والجلوس للتعليم والانتاجات العلمية، كما اندمجوا في التراتبية الاجتماعية بالمغرب الأدنى بفعل مكانتهم الراقية؛ وتنتهي الدراسة بعد دعمها بنماذج إحصائية لهؤلاء النخب المرتحلة إلى تبيان تشكل فضاء سوسيوثقافي ضمن المنظومة المجتمعية بآماكن الاستقرار ببلاد المغرب الأدنى.

الملخص

الكلمات الدالة: المغرب الأوسط؛ المئاقفة؛ النخب؛ الارتحال، المغرب الأدنى الوسيط؛ الفضاء السوسيو-ثقافي.

Abstrac:

This research article attempts to show the results of the migration of the elites of the Central Maghreb during the period extending from the 7th-9th H / 13th-16th A.C to the cities and countryside of the Lower Maghreb, through selected models and samples, from various magazines of the Central Maghreb; The research adopted a quantitative approach to explain the phenomenon, and the research also aimed to concretize the initial hypothesis which is: the ability of the scientifically elites of the Central Maghreb to form a socio-cultural space in their places of permanent stability by penetrating the social hierarchy and integrating into it, as well as competing with the scholars of the Lower Maghreb.

Keywords:

Central Maghreb; acculturation; Bas Maghreb; Medieval; elites; migration; socio-cultural space.

* المؤلف المرسل

1. مقدمة:

شكلت الوحدة العقائدية بين حواضر المغرب الاسلامي دافعا لبروز تلاقح ثقافي، وأدى حراك النخب العاملة وطلبة العلم من وإلى مختلف مجالات المغرب الاسلامي عبر رحلات علمية وزيارية خلال الفترة (7-9 هـ/13-15م)، أدى بديها إلى تشكل قضاء ثقافي، وآخر سوسيولوجي ترتب عن استقرار هذه النخب بعائلاتهم من جهة، أو عزابا بتكون رابطة مصاهرة قوية، أدت في النهاية إلى وحدة اجتماعية، امتزاج الأفكار، وتنشيط ثقافي في مختلف العلوم. كما ترتب عن هذا الاستقرار تولي الكثير من هؤلاء النخب لخطط ومناصب سواء دينية بهذه الحواضر، أو إدارية وسياسية (القضاء، الحسبة، التدريس، الخطبة،...)، وتخلل ذلك انتاجهم لمجموعة من المصنفات التي قيدت لحضورهم وعلمهم بأماكن استقرارهم، وأسهمت في تزويد المكتبات بشتى أصناف المعارف والعلوم.

كما ترتب عن هذا الاستقرار تولي الكثير من هؤلاء النخب لخطط ومناصب سواء دينية بهذه الحواضر، أو إدارية وسياسية (القضاء، الحسبة، التدريس، الخطبة،...)، وتخلل ذلك انتاجهم لمجموعة من المصنفات التي قيدت لحضورهم وعلمهم بأماكن استقرارهم، وأسهمت في تزويد المكتبات بشتى أصناف المعارف والعلوم. وانطلاقا من هذا، جاءت هذه الورقة البحثية لتتبع العلاقات الثقافية والاجتماعية التي أنتجتها المثاقفة انطلاقا من الرحلة العلمية والزيارية لنخب المغرب الأوسط إلى مختلف حواضر المغرب الأدنى، خلال مرحلة اتسمت ببروز أقطاب وأعلام دينية وصوفية، ومؤسسات دينية وروحية بها (ربط، زوايا، مدارس تعليمية،...)، وتطور بارز لمختلف العلوم، وكذا دعم السلطة الحاكمة لهذه الحركة الثقافية. وسنحاول دعم نتائج هذه الدراسة بجملة من المعطيات الاحصائيات من خلال عن حصرنا ل: الشخصيات التي ارتحلت، مواطنها الاصلية، أماكن استقرارها ببلاد المغرب الأدنى، الخطط التي تولوها، وانتاجاتهم العلمية، ووضعياتهم الاجتماعية ضمن مجتمع المغرب الأدنى.

اقتزن الحراك بين مجالات المغرب الاسلامي خلال الفترة (7-9 هـ/13-15م) بطلب العلم وتحصيله، وانطلاقا من تزايد حركية النشاط العلمي بفضل المثاقفة بين الحواضر على طول

مجالات المغرب الاسلامي، وقد ساهمت السلطة الحاكمة في تنشيط هذه الحركية بفضل اسهامها في بناء وتشديد العديد من المدارس والمؤسسات الدينية والصوفية، كما أدى اقتران بلاد المغرب الاسلامي بعلماء المشرق بعد انتشار الكثير من المصنفات المشرقية بمختلف العلوم بمجالات الغرب الاسلامي، وهذا الاحتكاك قد أنتج أعلاما أفذاذا بالمجالات القريبة من الحجاز وديار مصر، كما هو الحال مع بلاد المغرب الأدنى، فخلال الفترة المطروقة، سيتبلور اهتمام النخب العاملة من بلادنا الجزائر بتطور العلوم وارتكاز شخصيات عاملة بها، وهو ما سيجعلها منطقة لالتقاء رحلات علمية دائمة من مختلف حواضر بلاد المغرب الأوسط.

ولعل الاشكالية التي يمكن طرحها في هذا الباب هي: ما هي ملامح الفضاء السوسيو- ثقافي الذي أنتجه رحيل واستقرار النخب العاملة من بلاد المغرب الأوسط إلى و بمجالات بلاد المغرب الأدنى خلال الفترة (7-9هـ/13-15م)؟ وقصد الالمام بموضوع الدراسة، وللإجابة على الإشكالية الرئيسية له، احتاج البحث إلى مجموعة من المصادر المتعلقة بهذه المرحلة، وكان معظمها مرتبطا بكتب الرحلة، والطبقات والتراجم، وكذا كتب المشيخة.

كما تطلب البحث مزج عدة منهاج، بداية بالمنهج التاريخي عمدة البحث لاعتماده مصادر الفترة المطروقة، والمنهج الوصفي الذي أسهم في تقديم صور انتقال النخب وتبيان مختلف العوامل التي احاطت بتشكيلهم لفضاء اجتماعي وثقافي، كما احتاج البحث إلى المنهج التحليلي الذي خدم المنهج الاحصائي المطبق في شكل جداول جمع بها نماذج محددة لحركية النخب العاملة من مختلف حواضر وأرياف المغرب الأوسط باتجاه بلاد المغرب الأدنى، واستقرارهم بها، وانصهارهم ضمن التراتبية الاجتماعية، أو توليهم لمناصب بالسلطة. وجاءت دراستنا على النحو الآتي:

2. المغرب الأدنى واستقطاب الوافدين من حواضر المغرب الأوسط: -عرض نماذج-

سنحاول في هذا المبحث حصر نماذج للمرتحلين من النخب العاملة الجزائرية، والذين انتهت بهم رحلاتهم إلى الاستقرار بشكل دائم بحواضر وأرياف بلاد المغرب الأدنى خلال في الفترة (7-9هـ/13-15م)، ثم يليه اسقاط للمنهج الاكمي الاحصائي على المعطيات

المجموعة من مصنفات طبقات التراجم والمشيخة والرحلة وما إلى ذلك من المصادر المعتمدة لتحديد المواطن الأصلية التي انطلق منها الرحالة، وحساب نسب كل حاضرة مقارنة بالعدد الاجمالي للمتغربين:

1.2 . عينات لنخب المغرب الأوسط المرتحلين بحواضر المغرب الأدنى

أدت الرحلة العلمية من أهم وسائل التواصل الثقافي، الفكري، والاحتكاك بمختلف الثقافات بين مختلف النخب من حواضر المغرب الإسلامي عامة، والمغربين الأوسط والأدنى خاصة، أين كان هذا الأخير وجهة للكثير من علماء المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط على مرّ أزمته نظرا لتوفر ظروف تبادل المعارف، وتحصيل العلوم ومعرفة "الأخر"¹؛ وهذا بقاء العلماء بمختلف تخصصاتهم ومجالاتهم والسعي إلى تحصيل طرق الرواية منهم وبالخصوص الإجازات العلمية، وهذا السلوك الإنساني الحضاري سيأتي ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة، فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها، وليس الجماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها؛ فالارتحال والتغرب هو محاولة لاختراق حاجز المسافات واسقاط فاصل الجغرافي بين المكان والزمان². ويرى ابن خلدون (ت. 808هـ/1405م) أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم، والسبب في ذلك: "أنّ البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل: تارة علما وتعلّما وإلقاء وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة، إلا أنّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدّ استحكاما وأقوى رسوخا... فالرحلة لا بدّ منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال. والله يَهْدِي من يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ"³.

لقد شكلت بلاد المغرب الأدنى وجهة الكثير من النخب العاملة من مختلف حواضر بلاد المغرب الأوسط، وهذا لأسباب اجتماعية، وثقافية، فانتشار الكثير من المؤسسات الدينية والتعليمية، وكذا بروز عدد من أقطاب العلم والتصوف، كان من مسببات النزوح والاستقرار بمدن وأرياف بلاد المغرب الأدنى، وسيؤدي في النهاية إلى تشكل فضاء سوسيولوجي، بامتزاج نخب عاملة من حواضر المغرب الأوسط مع وسط اجتماعي جديد، بل سيؤدي في بعض

الأحيان هذا الاستقرار الدائم إلى تشكل أخلاط ومصاهرا عائلية بين المستقر والمحلي، وتتقاطع بذلك روابط الدم، كما سترتب عنها إعادة بلورة الخارطة البشرية، وتراتبيتها انطلاقا من سطوع نجم الكثير من النخب، واكتسابهم لمكانة بفضل تقاربهم مع السلطة الحاكمة، أو مصاهرتهم لعائلات نافذة، مما سيجعلهم ينصهرون ضمن الطبقة ذات النفوذ في تراتبية المجتمع بلاد المغرب الأدنى، كما كان للمكانة العلمية دور بارز في اندماج نخبة المغرب الأوسط المستقرين ضمن عليية المجتمع. وسنحاول في هذا المبحث إبراز نماذج لحراك النخب العاملة، وتوطينهم لبلاد المغرب الأدنى، وتشكيل فضاء سوسيولوجي بها من خلال الجداول التي أعدناها:

الشخصية	تاريخ الوفاة	الرحلة وموطن الاستقرار ببلاد المغرب الأدنى	المصدر/المراجع
أبو عبد الله محمد المستاري التلمساني.	توفي بعد 700هـ / 1300م	تلمساني الدار تونسي القرار. كان مدرس بمدرسة القاضي التوزري خارج باب المنارة بتونس وأم بالجامع العتيق. قال ابن الطواح: ممن لقيته ولم أقرأ عليه، بمدرسة القاضي التوزري كان معلما لأبي حمو بن يغمراسن [707-718هـ/1307-1318م] صاحب تلمسان.	سبك المقال 172-173. ⁴
أبو عبد الله محمد بن عمر بن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر المليكشي البجائي.	ت. 740هـ / 1339م	البجائي ثم التونسي. عني بالكتابة والأدب وله في التصوف قدم راسخ له شعر وكتابة بليغة وتأليف مستظرفة، ورحلة إلى الحجاز. قلد خطة الكتابة صاحب خطة الإنشاء بتونس.	نيل الابتهاج 2/ص 53. ⁵ تعريف الخلف 1/204-205 و 2 / 339-340. ⁶ معجم أعلام الجزائر 317-318. ⁷
أبو عبد الله محمد بن عبد النور الندرومي التلمساني.	ت. 750هـ / 1350م	ولد بندرومة ثم انتقل إلى تلمسان، وتوفي بتونس بالبواب الجارف، ودفن بالزلاج.	درة الحجال 136/2.

أبو العباس أحمد بن عباس النقاوسي.	ت. بعد 765 هـ/1364م	النقاوسي رحل من تلمسان إلى تونس واستقر بها توفي بعد 765 هـ.	نيل الابتهاج 95. معجم أعلام الجزائر 331.
أبو القاسم بن أحمد ثلاثا الغبريني البجائي.	ت. بعد 772 هـ/1370م	من أهل بجاية نزل تونس واستقر بها وتولى قضاء الجماعة.	نيل الابتهاج 104. شجرة النور 323/1. معجم أعلام الجزائر 249.
أبو سعيد بن أحمد ثلاثا الغبريني البجائي.	ت. على الأرجح 775 هـ/1373م	البجائي الأصل نشأ بتونس وتوفي بها.	نيل الابتهاج 104. شجرة النور 324/1. معجم أعلام الجزائر 249.
أبو زيان محمد بن عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان التلمساني.	ت. 785 هـ/1383م	من تلمسان، رحل إلى تونس، ومات بها مخلوعا من حكمه.	درة الحجال 241/2. ⁸
أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد المسيلي.	ت. 830 هـ/1427م	المسيلي الجزائري نزيل تونس، وتوفي بها سنة 830 هـ، وقال صاحب الضوء اللامع مات سنة ثمان أربعين.	التقييد الكبير 33. ⁹ فهرست الرصاع 275. ¹⁰ الضوء اللامع 261/2. ¹¹ نيل الابتهاج 115.
أبو الوليد أو أبو الفرج سرور بن عبد الله بن سرور القسنطيني المالكي.	ت. 845 هـ/1442م	القسنطيني المولد، التونسي المالكي، رحل إلى مصر، ونزل الاسكندرية، وبها توفي سنة 845 هـ.	وحيز الكلام للسخاوي 579/2. ¹² الضوء اللامع 245/3. نيل الابتهاج 191.
أبو العباس أحمد بن يونس بن سعيد بن غلام الله القسنطيني.	ت. 878 هـ/1474م.	القسنطيني نزيل تونس.	تاريخ الدولتين 135 و 150. ¹³ شجرة النور 374/1. ¹⁴

نيل الابتهاج 126.			
البستان 298. ¹⁵ توشيح الديباج 201. ¹⁶ شجرة النور 375/1. نيل الابتهاج 560.	التملساني المولد ثم رحل إلى تونس سنة 831هـ، وجاور، وتوفي بها سنة 894هـ.	ت. 894هـ/ 1488م.	أبو عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري التلمساني الشهير بالرصاص.
الضوء اللامع 170/1.	الطولقي رحل إلى قفصة للتعلم، ثم استقر بتونس سنة 828هـ، وتوفي بها سنة 899هـ، ودفن بالزلاج.	ت. 899هـ/ 1494م.	إبراهيم بن محمد الأخضر الطولقي المالكي.

2.2. التعليق على الجداول:

لقد تم اختيار عينة من 12 شخصية من المغرب الأوسط خلال الفترة (7-9هـ/13-16م) مرتحلة إلى بلاد المغرب الأدنى لإجراء الدراسة الاحصائية، وهي تعطي لنا صورة نمطية لتجربة المغرب العلمي التي دأبت النخب العاملة على خوض غمارها، وسنحاول هنا اجراء تحليل للجدول معتمدين المنهج الرياضي، والكمي عليه:

- ارتحل من حاضرة تلمسان 04 علماء من مجموع 12 شخصية مختارة للدراسة، ما يعادل نسبة 33% من مجموع المرتحلين باتجاه المغرب الأدنى؛ وتأتي في المرتبة الثانية حاضرة بجاية بما يعادل 25% من مجموع النخب المتغربة، بعدد 3 علماء من مجموع 12؛ وحلت حاضرة قسنطينة الثالثة بمعدل 2 من مجموع 12 شخصية، ونسبة مقدرة ب 17%، وباقي المدن نقاوس، المسيلة، وطولقة فقد تساوت في عدد المرتحلين ونسبهم المقدرة ب 8% لكل حاضرة منهم.

إن فترة الدراسة تشير إلى فترة مهمة عرفت خلالها بلاد المغرب الأوسط منعطفات مفصلية، وتحولات جذرية، انتهت إلى تغير عميق في السلطة الحاكمة بتولي الزيانيين لزمام الأمر

بعد تفكك السلطة الموحدية؛ كما أفضت هاته المرحلة إلى تحولات جوهرية في الحياة الفكرية، وهنا ما نلمسه في توقي التأليف والتصنيفات في شتى فروع العلوم وتوجهاته، لكن حب التغرب والارتحال كهدف لبلوغ الاجازات والتعلم على أيدي مشايخ ببلاد أخرى كان هدفا ساميا يسعى له الكثير من النخل العاملة، وهو ما يمكن من خلاله اعطاء تفسير ضمني لمعطيات الجدول، والتفسيرات الاحصائية التي صاحبتة.

إن تمتين العلاقات والروابط بين الجماعات العلمية والنخب بنقل وتبادل مختلف الافكار والعلوم، والانتاجات العلمية والمصنفات، قد انتهى في الكثير من الاحيان بفتة معينة إلى اختيار الاستقرار حيثما انتهت به رحلته، وهو ما يمكن اسقاطه على الموضوع المطروح في باب الإقامة الدائمة لنخب المغرب الأوسط من شتى الجهات في حواضر وبوادي المغرب الأدنى، على أنه لا يخف التطور الكبير الذي مس الجانب المعرفي في هذا المجال الجغرافي الواسع، بالأخص إذا ما علمنا بأنه ملتقى وتماس بين المشرق والمغرب الاسلاميين عبر الديار المصرية، مما أوجد تربة خصبة لهؤلاء المتغربين للتجذر والتوطن هناك، ومحاولة نشر الهوية المحلية عبر نشر مجموع التقاليد والعادات الخاصة بهم بين جيرانهم العرب، على أننا نلمح سكوت النص المصدري عن تقديم أدلة واضحة لمرافقي المرتحل، أو وضعيته العائلية سواء أكان عازبا أم بعائلته، وهو ما قد يجرنا إلى تقديم مقاربات تفسيرية لذلك، كأن نلاقي بين الاستقرار العازبين بالمغرب الأدنى وحالات المصاهرة، مما يولد تفسيراً لحب التغرب والمغزى الاضافي منه.

3. تشكل فضاء سوسيو- ثقافي ببلاد المغرب الأدنى (7-9هـ/13-15م):

بعد الاستقرار الدائم للنخب العاملة، واختيارها التغرب العلمي بمختلف حواضر المغرب الأدنى وأريافه، سيتشكل تدريجيا فضاء لمواطن الاستقرار، وتنشأ معه جالية عاملة تندمج تدريجيا في المنظومة العلمية بالمغرب الأدنى، وستخترق التركيبيية الاجتماعية لمجمع المغرب الأدنى. وسنحاول في هذا العرض المقسم إلى فرعين ابراز حدوث المثقافة العلمية والاجتماعية، والبرهنة على المثقافة العكسية من خلال نماذج لارتحال وتغرب نخب المغرب الأدنى إلى المغرب الاوسط:

1.3 . النخب العاملة: بين تبلور فضاء ثقافي والاندماج الاجتماعي بالمغرب الأدنى

بعد اختيار النخب العاملة الاستقرار الدائم ببلاد المغرب الأدنى، مهدت الظروف الاجتماعية الملائمة إلى حدوث مثاقفة بين أعلام المغرب الأوسط المستقرة، والنخب من بلاد المغرب الأدنى، وقد أدى هذا إلى بروز فضاء ثقافي مشترك ومميز لهؤلاء الأعلام، ترجم في الواقع بإنتاج وآثار علمية كثيرة، زخرت وزينت بهم المكتبات العربية، كما كان للظروف السياسية الملائمة أثر بالغ في ميلول السلطة إلى توليتهم خططا، ومناصب دينية وسياسية، وهو ما ثبتت حضورهم ضمن تراتبية المجتمع، وانصهارهم فيه.

بداية بحاضرة تلمسان الزيرية وأحوازها، ومنها الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد النور الندرومي، الذي أخذ عن إبنه الإمام، الذي نزل حاضرة تلمسان وشغل بها قاض، ثم رحل إلى فاس، وتولى خطة القضاء بها، قبل أن يستقر بتونس، وبها اشتغل في الفتية فكان فقيها، وذكر صاحب درة الحجال أنه توفي بها بالوباء الجارف، ودفن بمقبرة الزلاج¹⁷. ومنها الإمام الفقيه النظار العلامة القاضي المحقق المؤلف أبي عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري التلمساني الشهير بالرصاص، أخذ عن البرزلي وابن عقاب والأخوين القلشاني، وعن العبدوسي، والعقباني وعن البحيري، وغيرهم. له تأليف عدة، ومنها: كتاب تذكرة المحبين، وشرح عن ابن عرفة، والكلام على الآيات الواقعة، وكتاب في الاعراب، كما له فتاوى نقلها الونشريسي والمازوني. تولى خطة قضاء الأنكحة بالحللة، والتدريس بزاوية باب البحر، الإمامة بجامع الزيتونة وكان له حضور في الفتوى، تدريس الفقه وأصول الدين والعربية والمنطق¹⁸.

ومن نخب بجاية التي تركت لها أثرا بارزا ببلاد المغرب الأدنى: الفقيه أبو القاسم بن أحمد ثلاثا الغبريني البجائي، قال عنه البرزلي: هو شيخنا الفقيه الرواية المفتي الصالح المسن أبو القاسم. قال عنه تلميذه أبو الطيب بن علوان: شيخنا الإمام العلامة المشاور الثبت الرواية المدرس المفتي الخطيب ذو الخطط الشرعية والعلوم النقلية. أخذ عن جماعة منهم أبي مهدي عيسى و القلشاني وابن عبد السلام، وأخذ عنه البرزلي وأبو الطيب بن علوان. ومن الخطط التي تولاه: الخطابة والافتاء بجامع الزيتونة، وبعد وفاته خلفه ابن عرفة في الخطابة¹⁹. أما أخوه أبو

سعيد بن أحمد المتوفى على الأرجح 775هـ المحدث الفقيه العالم، قال فيه أبو الطيب بن علوان: هو شيخنا الفقيه الرئيس الامام الخطيب الموقر المشاور المسند المحدث بقية المشايخ²⁰. وكان لأعلام حاضرة قسنطينة حضور قوي ببلاد المغرب الأدنى، وقد شكلوا فضاء ثقافيا مميزا، وتولوا خططا ومناصب سياسية هناك، ومنهم: الامام الفقيه العارف بالقراءات من أهل قسنطينة سرور بن عبد الله بن سرور المالكي القسنطيني عرف باسمه الامام القريشي المالكي التونسي، نزل تونس، ثم رحل وسمع بمصر عن صاحب الاصابة في تمييز الصحابة الامام ابن حجر العسقلاني، قال البرهان البقاعي: ولد كما أخبرني به سنة إحدى وتسعين وسبعمائة بقسنطينة ثم قطن الاسكندرية وبقي فيها. تميز في القراءات وممن أخذها عنه الشمس الديروطي²¹. ومنهم الإمام الفقيه العالم الكامل المتفنن العمدة القسنطيني المولد أبي العباس احمد بن يونس بن سعيد بن غلام الله القسنطيني المرتحل إلى تونس، وقد أخذ عن البرزلي، وعن ابن مرزوق الحفيد، وعن البساطي، وتفقه بأبي الزنديوي، وغيرهم، وأخذ عنه الشيخ أحمد زروق والتتائي. ومن المناصب التي تولاها خطة قضاء الأنكحة بتونس، والتدريس بمدرسة المنتصرية. له تأليف منها: كتاب ترجيح السيادة في الصلاة على النبي، وقصيدة في مدحه، وكتاب الأجوبة²².

أما نخب بلاد اوراس والزاب فقد كان لهم حضور ملفت ببلاد المغرب الأدنى، ومنهم أما أبو العباس أحمد بن عباس النقاسي، الفقيه المالكي النحوي الحافظ الأديب، كان له مشاركة في علم التفسير والحديث واللغة، قال عنه البلوي في رحلته تاج المفرق²³: هو الشيخ الفقيه العالم، كان حافظا مجيدا وحافلا وناقلا سديدا وناقدا شديدا وعارفا مديدا ومدرسا مفيدا رحل من تلمسان قبل الحصار وتلافى ريحها الاعصار، فدخل تونس مشمرا، فأخذ عن المشدالي وابن راشد، ويعرف بابن الحاجب. ومن آثاره: كتاب الروض الأريض، حديقة الناظر، شرح المصباح، وإيضاح السبيل، وغيرها²⁴.

ومن بلاد الزاب إبراهيم بن محمد الأخضر الطولقي المالكي الذي رحل للتعلم إلى قفصة واستقر بتونس سنة 828هـ، أخذ عن أبي يحيى بن عقبة وعن أبي عبد الله القلجاني، ثم عن

ولده عمر القلجاني وكذا عن العقباني. وصف بالاجتهاد المطلق، وكان لا يفتي الا بمذهب مالك، زاهد ورع تام العقل مهذب مع حسن العشرة والملاطفة والتفنع، لا يخاف في الله لومة لائم. توفي ودفن بالزلاجة سنة تسع وتسعين. تولى الفتية، كما اشتغل بالتدريس بجامع الزيتونة²⁵.

ومن بلاد المسيلة استقر الشيخ العالم المفسر أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد، ومن أخذ عنه: ابن عرفة، البطروني، ابن خلدون، ابن مهدي عيسى الغبريني، وغيرهم. ومن تأليفه: تقييد جليل في التفسير قيد عن ابن عرفة في فوائد وزوائد ونكت، التقييد الكبير للبسيلي، ونكت وتببيها في تفسير القرآن²⁶.

كونت نخب المغرب الأوسط لنفسها جالية كبيرة العدد متنوعة الاختصاص، حيث توزع أفرادها تبعا لذلك عبر كامل مجالات المغرب الأدنى، حواضرها وأريافها، وشاركوا في جميع شؤون الحياة العامة، بحيث لم يخل مكان ولا مجال منهم، وقد اتخذت تلك الصور من المشاركات عدة أشكال، ونجحت هاته النخب بعد استقرارها من التكيف مع التطور الذي وقفت هناك، بل أكثر من ذلك، تمكنت من الحصول على الإجازات والسند، وهو ما مكنتهم من التحول من دائرة التأثير الثقافي إلى دائرة التأثير الثقافي. وقد اتخذت تلك الصور من المشاركات عدة أشكال، حتى حملوا ألقاب المدن والقرى التي استقروا أو ساهموا وأثروا فيها، ونتج عن هذا ترتيبهم ضمن طبقات المغرب الأدنى لطول استقرارهم بهاته البلاد، حتى صاروا ضمن تراتبية مجتمعها.

2.3 . الصورة العكسية لتشكيل الفضاء السوسيو-ثقافي:

لم يقتصر المغرب العلمي على نخب علماء المغرب الأوسط تجاه حواضر بلاد إفريقية والمغرب الأدنى، بل نلاحظ حدوث مثاقفة عكسية تشكلت نتيجة لاختيار عدد من علماء المغرب الأدنى الارتحال والاستقرار إما نسبيا أو بشكل دائما حاملين اسم الحاضرة التي انتهى بهم الارتحال بها ملتصقة في نهاية اسمهم ومدينتهم الاصلية، وسنعطي في ذلك نماذج استقيناها من المائة الهجرية السابعة والثامنة والتاسعة: مما سبق ذكره يتضح أن الدولة الفاطمية بعد توتيد

دعائهم قد احتاجت إلى شخصيات وأعوان لتدبير شؤونها الداخلية والخارجية، وتسيير المراحل المتباعدة في حياة هذا الكيان السياسي خلال مرحلته المغربية، فبعد نجاح دعائهم في التأسيس لقاعدة صحيحة لبناء الدولة، جاء الدور على رجال الدولة لتقديم الدعم الدائم وإرساء قواعد واستمرارية دولتهم، بل تشكلت شخصيات دينية كان لها دور بارز في الدفاع عن فكر الجماعة الاسماعيلية وعقائدهم. والملاحظ أن شخصية جوذر محل الدراسة قد كانت في خدمة السياسة والدين معا بفضل مجهوداته اللامتناهية ضمن بلاط وخطط الدولة.

أبو القاسم بن أبي بكر التونسي الشهير بابن زيتون (ت. 691هـ/1292م)، نزل بجاية، ارتحل للمشرق مرتين قرأ وحصل، له علم بأصول الفقه والعقائد الكلامية والفقه والخلاف والجدل والمنطق، ولي القضاء، والفتية، ولم يزل مطوقا بالرياسة مشتهرا بالسيادة والنفاسة إلى أن مات²⁷.

ومنهم، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد السلام الشهير بابن الطير الافريقي (ت. 699هـ/1300م)، قرأ ببجاية وبخاضرة تونس، وارتحل إلى المشرق وحج البيت الحرام، وتخطط العادلة وهي صفته، وكان له باع بالفقه وأصوله، وله نزاهة ورياسة وعلة همة، ولي قضاء بجاية محمولا عليه، وهو لا يريد، ثم ولي قضاء الأنكحة بها، وكان له مجلس خلال اقامته ببجاية، يقرأ عليه فيه الخواص، وكان أحب إليه العزل على تولي القضاء، ومما ألف "كتاب مختصر المستصفي"²⁸.

وكذا، أبو علي الحسن بن موسى بن معمر (من أهل القرن السابع الهجري) الشيخ الفقيه القاضي العدل الفصيح، من إفريقية، كان أدبيا لبيبا، وهو من خواص أصحاب الفقيه العالم أبي زكرياء البرقي، ارتحل إلى بجاية، واستقر بها، وولي خطة القضاء فحسنت سيرته فيه²⁹، وكان محبا للناس مشكورا عندهم، وذكر أنه كان يحمل العلامة المستنصرية³⁰.

أبو اسحاق برهان الدين ابراهيم بن محمد القيسي الصفاقسي (ت. 743هـ) الإمام العلامة المتفنن الفقيه اللغوي والعالم المالكي أخذ عن الدروال والمشدالي ببجاية وابن برطلة وأبي حيان، والمزني، وزينب بنت الكمال. له تأليف بارعة منها نوازل في الفروع، وإعراب القرآن³¹.

وأيضاً، ابن الطواح أبو مُجَدَّ وأبو سلامة عبد الواحد بن احمد بن مُجَدَّ بن عبد العزيز (ت. 718هـ/1318م) من بلدة (تامغصا) بينها وبين توزر يومين (جنوب تونس). رحل إلى توزر بسبب نزاع مع قريته أقسم أن لا يقيم في بلده تلك المدة، ورجع إلى تونس سنة 695هـ/1295م، ثم ارتحل إلى بونه، وقسنطينة أول سنة 698هـ/1298م، ثم بجاية ورجع لتونس تلقى علومه على طائفة كبيرة من علماء تونس والمغرب والاندلس ممن أوردتهم في كتابه سبك المقال، ومن مؤلفاته: شرحه على الجلاب، وكتابه في التصوف، وأخذ عنه الخرقا الصوفية اشتغل مدرسا للقرآن بجامعة القصر لمدة ثلاث سنوات³².

ومنهم كذلك، أبو مُجَدَّ بن أحمد التجاني ت. 710 هـ / 1310م دخل بجاية كاتباً للعلامة السلطانية سنة 684هـ/1285م لأبي فارس عزوز الحفصي، وبقي بين بجاية وقسنطينة ثم رجع إلى تونس، كان كاتباً للعلامة السلطانية ببجاية وديوان الرسائل بتونس ثم رئيس ديوان الأمير أبي زكرياء³³.

وآخر، أبو الفضل أو أبو القاسم قاسم بن عيسى التنوخي الشهير بابن ناجي القيرواني (ت. 837هـ/1434م) ولد بالقيروان سنة 760 هـ/1359م، ورحل إلى تونس ثم رحل إلى المغرب الأوسط وأخذ عن أبي مهدي عيسى الغبريني البجائي، وأبي القاسم القسنطيني وأجازه، جلس لخطبة القضاء بمدن المغرب الأوسط: تبسة وقيل أيضاً إلى تلمسان ثم عاد إلى القيروان وبها توفي سنة 837 أو 838هـ. ترك مؤلفات منها: شرح على الرسالة في علماء القيروان، كما أتم معالم الدباغ، مشارق الأنوار وتآليف معول عليها في المذهب المالكي³⁴.

4. خاتمة:

مما سبق ذكره يتضح أن الدولة الفاطمية بعد توتيد دعائها قد احتاجت إلى شخصيات وأعوان لتدبير شؤونها الداخلية والخارجية، وتسيير المراحل المتباعدة في حياة هذا الكيان السياسي خلال مرحلته المغربية، فبعد نجاح دعائهم في التأسيس لقاعدة صحيحة لبناء الدولة، جاء الدور على رجال الدولة لتقديم الدعم الدائم وإرساء قواعد واستمرارية دولتهم، بل تشكلت شخصيات دينية كان لها دور بارز في الدفاع عن فكر الجماعة الاسماعيلية

وعقائدهم. والملاحظ أن شخصية جوذر محل الدراسة قد كانت في خدمة السياسة والدين معا بفضل مجهوداته اللامتناهية ضمن بلاط وخطط الدولة.

أن بلاد المغرب الأدنى قد شكلت قاعدة لحراك النخبة العالمية من بلاد المغرب الاوسط خلال الفترة (7-9هـ/12-15م)، بفضل توفر عوامل ومعايير سهلت هذه الحركية العلمية والثقافية والاجتماعية؛

اختار الكثير من النخب الجزائرية الاستقرار بمجالات المغرب الادنى، وقد تولد عن ذلك تشكيل فضاء اجتماعي بتلاقي جماعات جديدة وافدة على بلاد المغرب الادنى، وسيكون للمصاهرة دور ثانوي بفعل حضور نخب عزاب، وسينتهي الحال بمؤلاء إلى الحضور ضمن تراتبية المجتمع وطبقاته، بعدما بنوا لأنفسهم سمعة مميزة هنا.

ترتب عن المثاقفة بين نخب الجزائر وتونس تشكل فضاء ثقافي لافت، وانتهى بإنتاج علمي وثقافي كبير، حيث انبرى علماء الجزائر إلى تأليف عدة مصنفات في صورة كتاب الروض الأريض لابي العباس النقاسي، والتقييد الكبير للبسيللي، وكتاب ترجيح السيادة في الصلاة على النبي لسرور بن عبد الله القسنطيني، وغيرها من التصانيف.

وبفضل مكانتهم الدينية والعلمية، استقر الامر بالسلطة إلى توليتهم خططا ومناصب رفيعة، دينية، ودنيوية، كما هو الحال مع التدريس بجامع الزيتونة لإبراهيم بن محمد الأخضرري الطولقي، والامامة بجامع الزيتونة لعبد النور الندرومي، أحمد بن يونس القسنطيني الذي تولى خطة قضاء الأنكحة بتونس، والتدريس بمدرسة المنتصرية، وغيرها من المناصب والخطط التي تولاها هؤلاء.

إن هذه النتائج التي توصلنا إليها تعطي لنا صورة جلية على جذب بلاد المغرب الادنى للنخب العاملة الجزائرية، كما تبرز أيضا المكانة التي وصل إليها هؤلاء بعد اختيارهم الاستقرار هناك، مما مكن لهم في تشكيل فضاء سوسيوولوجي مميز، ونجاحهم في بلورة علمهم في صور شتى كالإنتاج الثقافي والتصانيف الدينية، ولرضى السلطان والعامّة بتوليتهم لمناصب مرموقة، وخطط

دينية قوية، وعلوم نقلت واخذت عنهم، مما يبرز نجاحهم في تشكيل فضاء سوسيو-ثقافي بامتياز، كانت له تبعات للوحدة العقائدية، والتجاوز الجغرافي واللغوي.

5. هوامش:

- ¹ عبد الرحمن، بلخير: الإجازات العلمية لعلماء المغرب الأوسط خلال القرن 9 هـ / 15م (دراسة في التداول والإسهامات)، مجلة عصور الجديدة، 3-11 (2021)، ص 140-159.
- ² عبد الله، حمادي: أصوات من الأدب الجزائري الحديث، دار البعث، الجزائر، 2001م، ص 108.
- ³ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مر: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2001م، ج 1، ص 744-745.
- ⁴ ابن الطواح: سبك المقال، تح: مُحمَّد مسعود جبران، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا-طرابلس، ط2، 2008م، ص 172-173.
- ⁵ التنبكي: نيل الابتهاج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1989م، ج 2، ص 53.
- ⁶ مُحمَّد، الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، مكتبة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906م، ج 1، ص 204-205، ج 2، ص 339-340.
- ⁷ عادل، نويهض: معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م، ص 317-318.
- ⁸ ابن القاضي: درة الحجال، تح: مُحمَّد الأحمد، مكتبة دار التراث، 1971م، ج 2، ص 241.
- ⁹ البسيلي: التقيد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد، تح: عبد الله الوهبي، منشورات جامعة الامان بن سعود، الرياض، 1991م، ص 33.
- ¹⁰ الرصاع: فهرست الرصاع، المكتبة العتيقة، تونس، 1967م، ص 275.
- ¹¹ السخاوي: الضوء اللامع للامع لأهل القرن التاسع، دار جيل، بيروت، 1992م، ج 2، ص 261.
- ¹² السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على دول الاسلام، تح: بشار عواد وفارس الحرساني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995م، ج 2، ص 579.
- ¹³ الزركشي: تاريخ الدولتين، تح: مُحمَّد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
- ¹⁴ مُحمَّد، مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص 298.
- ¹⁵ ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، منشورات السهل، الجزائر، 2009م.

- ¹⁶ القزاني: توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004م، ص 201.
- ¹⁷ درة الحجال: المصدر السابق، ج2، ص 136.
- ¹⁸ البستان: المصدر السابق، ص 298؛ توشيح الديباج: المصدر السابق، ص 201؛ شجرة النور: المصدر السابق، ج1، ص 375؛ نيل الابتهاج: المصدر السابق، ص 560.
- ¹⁹ نيل الابتهاج: المصدر السابق، ص 104. شجرة النور: المرجع السابق، ج1، ص 323؛ معجم أعلام الجزائر: المرجع السابق، ص 249.
- ²⁰ نيل الابتهاج: المصدر السابق، ص 104. شجرة النور: المرجع السابق، ج1، ص 324؛ معجم أعلام الجزائر: المرجع السابق، ص 249.
- ²¹ السخاوي: وجيز الكلام، المصدر السابق، ج2، ص 579؛ الضوء اللامع 245/3؛ نيل الابتهاج: المصدر السابق، ص 191. معجم أعلام الجزائر: المرجع السابق، ص 366.
- ²² تاريخ الدولتين: المصدر السابق، ص 135 و 150. شجرة النور: المرجع السابق، ج1، ص 374؛ نيل الابتهاج: المصدر السابق، ص 126.
- ²³ البلوي (ت. 767هـ/1366م)، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تح: حسن السائح، لجنة نشر التراث الاسلامي، المملكة المغربية، الامارات، د.ت.
- ²⁴ نيل الابتهاج 95. معجم أعلام الجزائر 331.
- ²⁵ الضوء اللامع: المصدر السابق، ج1، ص 170.
- ²⁶ التقيد الكبير: المصدر السابق، ص 33. فهرست الرصاع: المصدر السابق، ص 275؛ الضوء اللامع: المصدر السابق، ج2، ص 261؛ نيل الابتهاج: المصدر السابق، ص 115؛ معجم أعلام الجزائر: المرجع السابق، ص 299؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1957م، ج1، ص 253.
- ²⁷ الغبريني، عنوان الدراية، تح: نويهض عادل، دار الافاق الجديدة، بيروت، 1979م، ص 97؛ شجرة النور الزكية، المصدر السابق، ج1، ص 193.
- ²⁸ عنوان الدراية: المصدر السابق، ص 231؛ نيل الابتهاج: المصدر السابق، ص 139 و 229.
- ²⁹ عنوان الدراية: المصدر السابق، ص 307.
- ³⁰ ابن الاحرر، مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تح: مُجدّ التركي التونسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1964م، ص 32.

- ³¹ نيل الابتهاج: المصدر السابق، ص 2؛ شجرة النور، المرجع السابق، ج 1، ص 299.
- ³² سبك المقال: المصدر السابق، ص 25 و 235.
- ³³ سبك المقال: المصدر السابق، ص 165-168؛ التجاني، رحلة التجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1981م، ص كج+ كد.
- ³⁴ البستان: المصدر السابق، ص 170؛ نيل الابتهاج: المصدر السابق، ص 364؛ درة الحجال: المرجع السابق، ج 3، ص 282؛ شجرة النور الزكية: المرجع السابق، ج 1، ص 352.